

تاريخ الإرسال: 2014/02/27 - تاريخ القبول للنشر: 3014/04/30 تاريخ النشر: 2014/07/06

الجلفة في مذكرات الرحالة هاينريش فون مالتسان

د/مقلاتي عبدالله ، قسم التاريخ، جامعة المسيلة.

من بين الرحلات الأجنبية التي كتبت عن الجلفة مذكرات فون مالتسان الألماني الأصل، زار الجلفة وتعرف على سكانها وتاريخها، وذلك في مرحلة حاسمة من فجر الاحتلال، وقد تحدث عن جغرافيتها ومقاومتها، وعلى إدارتها وعاداتها ورجالها، وجمع معلوماته المختلفة من شيوخ المنطقة والضباط الفرنسيين، وسجل انطباعاته المختلفة، ولا شك أن الصورة التي قدمها عن المنطقة تكتسي أهمية بالغة، من حيث المعلومات والطرح، وهو ما نحاول إبرازه في مداخلتنا، محاولين الاستفادة من مصدر مهم في كتابة التاريخ المحلي للجلفة.

1. في التعريف بالمؤلف ورحلته:

هاينريش فون مالتسان هو أحد الرحالة الأجانب الألمان الذين زاروا الجزائر وكتبوا عنها، وكتابه "ثلاث سنوات في غربي شمال إفريقيا" أحد المصنفات المهمة في تاريخ الجزائر، خاصة وأنه ألف في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، وأنه استفاد في الحديث عن الجزائر وأحوالها ومناطقها، وهو يشبه ما كتبه "فاغنر" قبله عن الجزائر، خاصة من حيث التوسع وانتقاد السياسة الفرنسية وجرائمها في الجزائر، وقد كان هاينريش شاعرا وكاتباً روائياً، فجاءت رحلته مليئة بالأشعار والمرويات، كما وانه كتب من قبل روايات عن الجزائر مستمدة من الروايات الشعبية، كان منها "صور من التقاليد التونسية والجزائرية" المنشور عام 1869، ورواية "قبر الرومية" المنشورة عام 1865.¹

وفي كتابه هذا يتناول أحداث رحلته التي جابت أغلب المدن الجزائرية، من الغرب إلى الوسط والشرق، وهو يقوم بوصف المدن التي يحل بها، ويستعرض تاريخها وعاداتها وأساليب الحياة بها، ويتميز الكاتب بمعرفته للغه العربية التي ساعدته على الاطلاع على الكتابات المحلية ومخاطبة محدثيه وجمع المعلومات الضرورية لرحلته.

ولد المؤلف عام 1826 بمدينة دريسدن بألمانيا، نشأ في عائلة ثرية محافظة، درس الحقوق وتعلم اللغات الشرقية، وعندما تخرج عام 1850 اشتغل في وظيفة حكومية، ثم تركها وتفرغ للقيام برحلاته في أوروبا والمشرق العربي، وجاء إلى

المغرب والجزائر، حيث استقر مدة طويلة، تعلم خلالها الدارحة الجزائرية، وتفرغ للقيام برحلاته المتنوعة في الجزائر بعد سنة 1857، وبعد زيارة الى الحجاز عاد الى بلده ونشر بعض الكتب، ثم زار سنة 1867 تونس وليبيا وجمع معلومات وافرة عنهما، كما زار بعدها جنوب الجزيرة العربية ونشر عنها بعض الدراسات، وعاد الى وطنه للاستقرار، عانى من مرض الأعصاب وتوفي منتحرا عام 1874، خلفا عشرات البحوث والدراسات، والكثير منها نشر بعد وفاته.²

وهذا الكتاب الذي نعتمدها من أهم مؤلفاته، وقد نشر عام 1863 في أربع مجلدات، ثلاثة خاصة بالجزائر والرابع بالمغرب، وهو يتحدث عن مناطق الجزائر الثلاث، الشرق والوسط والغرب، والتي زارها وتوقف مطولا عندها، وقد قدم لكتابه مبينا أهدافه من وراء تأليف الكتاب، والتي اختصرها في إعطاء صورة لبني جلدته عن تلك البلدان التي زارها، وفعلا يبدو المؤلف حريصا على تسجيل انطباعاته عن المناطق التي زارها، ومنها منطقة الجلفة.

2 وصف مالتسان للجلفة :

الجلفة مدينة جزائرية نشأت في العهد الاستعماري، وذلك بعد احتلالها في بداية خمسينات القرن التاسع عشر الميلادي، حيث قررت الإدارة الفرنسية التي كانت منشغلة باحتلال الأغواط إقامة مركز عسكري يمهّد لاحتلال الأغواط، التي أخذت جهدا كبيرا من الفرنسيين³، وتذكر المصادر أن الجلفة قرية أقيمت عام 1951 حول مركز حربي فرنسي، في خط الطريق المؤدي الى الأغواط، لعب دورا في إخضاع زعماء أولاد نايل للسلطة الفرنسية، وخاصة الخليفة سي شريف الذي تحول من خدمة الأمير عبدالقادر الى خدمة الإدارة الفرنسية وأسهم في مجابهة ثورة ناصر ابن شهرة⁴، وقد أصبحت مدينة الجلفة تجمع بين الحامية العسكرية وبعض سكان قبائل أولاد نايل المعروفين بسكن البادية، وهم فرق من زغبة تنتشر في جبال عمور والى الزيبان، ومن الحصنة شمالا الى ميزاب جنوبا.⁵

دخل المؤلف المنطقة عبر بوغار، ويبدو انه جاء من مدينة الجزائر وكان متجها الى الأغواط، وذلك في حدود سنة 1858، وقد تحدث عن طريق رحلته، عين وسارة وقلته السطل، واصفا جغرافية وطبيعة كل منطقة وصفا حيا، وهذا كان يدين المؤلف في كل رحلاته، فهو يحرص على وصف تضاريسها وجمالها، كانت سهول هذه المنطقة تكسوها الحلفاء، وبعد ليلة قضاها المؤلف بجبل حجرة الملح وصل الى الجلفة، والتي قال انها تقع في الطريق بين بوغار والأغواط، " كانت الجلفة قرية حديثة جدا، لا تتكون إلا من عشرة منازل، يسكنها سبعون نسمة من الأوربيين، وكان بها فندق صغير...".⁶

قصد المؤلف رفقة مرافقيه الاثنى عشر الفندق الوحيد في المدينة، والذي كان ملكا لسيدتين فرنسيتين، ومن سوء حظّه أن الفندق كان محجوزا من قبل سائحتين إنجليزيتين، جرى التعرف عليهما، وعلى ضابطين من المكتب العربي كانا في

ضيافتهما، وكل ذلك كان مدخلا للتعرف على المدينة، حيث وجهت إحداهن دعوة للذهاب في زيارة الى مقر قيادة أولاد نايل في بادية المدينة، ولعل ذلك تم بإيعاز من الضابطيين الفرنسيين.

كانت الرحلة الريف شيقة، سيدتان وخمسة رجال، بينهم ضباط المكتب العربي في موكب يخترق المدينة على مرأى من السكان العرب في طريقه الى مقر أولاد نايل القبيلة الكبرى في المنطقة، كان الشيخ يسمى سي الشريف له بيت في الحلفة وآخر في الريف، وكان معروفا لدى الضباط الفرنسيين والسيدتين الانجليزييتين، وقد وصف مالتسان الرحلة بقوله: "كانت جيانا تحمحم، والعرب يصرخون، وسكان الحلفة يثرثرون ويتهامسون، والكلاب تنبح، والديكة تصيح، حينما خرجنا من المدينة، وعند ابواب الحلفة استقبلنا جو اقل صخباً".⁷

3. في بادية أولاد نايل:

يتحدث مالتسان عن ظروف استقباله من قبل شيخ أولاد نايل، ويشير الى أن فرقة من الخيالة تقدمت للترحيب بهم على مدخل الخيام، وهو ما أثار فضولهم ودهشتهم، وعبر عن استقبال العرب لضيوفهم بالفتنازيا بالقول: "وبعد أن زال الأثر الأول للمفاجأة أخذنا نضحك من كل قلوبنا لهذا النوع المعبر من الاستقبال، ذلك أن إطلاق النار علينا من بنادقهم واقتراجم منا بجيادهم الى الحد الذي كادوا معه أن يسحقوا أجسادنا لم يكن إلا للترحيب الحار بنا، الذي لا يخلصون به غير الوجهاء المحترمين، والعرب يسمون هذا "خل البارود يتكلم"⁸، ويسترسل الرحالة في الحديث عن هذه العادة الشعبية، موضحاً أنها تقليد قديم، وأنه على الرغم من خطورته فهو مؤمن، ما عدا حدوث بعض الاستثناءات، فقد حدث وأن أصيب بعض الضيوف بأوراق البارود التي تتطاير من الماسورة وتصيب أعينهم، ويضيف أنه وعلى الرغم من أن الحكومة الفرنسية منعت مثل هذه الفتنازيا إلا أن العرب مغرمون بهذا اللعب الخطير، وأن علاقة سي الشريف الطيبة مع ضابط المكتب العربي سمحت له بالحفاظ على هذه العادة.⁹

ويذكر مالتسان أنهم نزلوا في خيام سي الشريف السوداء الكثيرة، وأن خيمة الاستضافة تغطيها سجادة نفيسة، وفوقها مائدة وكراسي فرنسية، وطعام فطور بنكهة فرنسية أعده عربي، وهو أمر لم يعجب مالتسان الذي تمنى أن يقدم له الطعام العربي ليتعرف على أسراره، وبعدها خرج الضيوف ليتفرحوا على مشهد بدوي أصيل، تمثل في رؤية الشيخ وفرسانه الذين خرجوا للصيد، كان نحو أربعين فارساً تصحبهم الكلاب، تلك الكلاب التي لفتت انتباه مالتسان، وقال عنها بعد أن وصفها أنها كلاب عربية سلوقية وإن لم يخبره سي الشريف بذلك، وأنها هجين للكلاب العربية الأصيلة مع كلاب الأمراء الصليبيين الذين جلبوها من الشرق منذ ثمانمائة سنة.

وتحول مالتسان للحديث عن الشيخ سي الشريف قائلا: " كان الشيخ، وهو رجل كهل يلوح عليه النبل، جالسا فوق ظهر جواده في شموخ، وكانت سمرة وجهه وكذلك سواد لحيته، بارزة بروزا صارخا، من خلال بياض برنسه الناصع، وكان قد ركب الى جانبه أخوه، وهو رجل شاب، شاحب اللون، وكان يبدو بملامحه الباهتة ولحيته الرقيقة الطويلة طويل الوجه الى حد ما، وكان سعاله الجاف ينم عن وجود مرض الرئة بين أبناء الخيام أيضا، وكان هذان الرجلان الوحيدين بين أفراد الزمرة كلها اللذين يرتديان ثيابا نظيفة أو أنيقة، أما الباقون فكانوا كلهم يلتفون بمهارة فنية في برانس مهلهلة".¹⁰

ويعقب مالتسان على لباس العرب بالقول إن عامة الناس يرتدون تلك الملابس البالية ما عدا أولئك القياذ الذين يبالغون في ارتداء الملابس المطرزة التي تظهرهم كأهم نبلاء ولكنهم يصطنعون ذلك اصطناعا، ويتميزون عن عامة شعبهم، وأن البدو الأصلاء لا ينخدعون بحسن الزي والمظهرة.¹¹

وبعد سويغات من الصيد عاد الشيخ سي الشريف وموكبه محملا بغنائم الصيد، وكان العشاء فاخرا، لطفه سي الشريف بحكاياته المرحة، وقد روى مالتسان منها قوله أن الصيد بالبازي عادة عربية يمارسها الرجال الذين ينتسبون للنسب الشريف، وفي حالة محاولة غيرهم ممارسة هذا الصيد فإنهم يتعرضون لإهانة شديدة، وروى عن سي الشريف رواية أخرى، ذكر فيها ان احد القياذ سأل آخر يقيم قرب الأغواط عن صحة زوجته، وأن ذلك كان أمر مهينا للرجل، مما دعاه يخطط لقتله داخل خيام قبيلته، وذلك بإخفاء رجاله في لباس النسوة والتخلص منه بطريقة قاسية، شق البطن ووضع الحجارة داخله وإخاطته.

وختم مالتسان حديثه عن الجلفة بالتساؤل عن سبب بقاء السيدتين الأنجليزيتين الجميلتين بالجلفة، وحاول أن يجيب بالقول أن السيدة الكبرى تحصلت على مال وفير من زوجها اللورد وأرادت أن تتمتع بما في أفاصي العالم، وأن السيدتين استحسنتا التمتع بمصاحبة الضباط الفرنسيين.¹²

إن قراءة الرحلة يفيد في معرفة جوانب مهمة من تاريخ الجلفة، وخاصة ما تعلق بالوضعية السائدة في المنطقة بعد احتلالها ببضع سنوات، حيث كان مالتسان شاهد عيان، وقد التزم بالحياد ولم يتجنى عن سكان المنطقة مثلما فعلت الكتابات الفرنسية، ومما يلاحظ على الرحلة التي تعد مصدرا مهما لتاريخ الجلفة المحلي أنها كانت رحلة قصيرة، لم يتمكن مالتسان من الاستفاضة في الحديث وتسجيل انطباعات كثيرة على عكس مدن أخرى، كما أن مالتسان اهتم كثيرا بسرد بعض الأفاصيص والروايات على حساب جوانب أخرى، ويرجع ذلك لاهتماماته الأدبية وتركيزه على جمع غرائب الحكايات والأفاصيص.

الخاتمة:

ومن خلال ما سبق عرضه يتبين لنا أن رحلة مالتسان الى الجلفة والانطباعات التي سجلها تعد مصدرا مهما في معرفة تاريخ الجلفة في بداية احتلالها، وأن الرجل كان دقيقا في وصف طريق الرحلة ومشاهداته، وأن انطباعاته عن الضباط الفرنسيين وشيخ العرب والبدو كانت واقعية ومفيدة، ذلك أنها مختلفة تماما عما سجله الفرنسيون، وتقدم الإضافة في معرفة تاريخ الجلفة المحلي الذي يظل بحاجة الى جمع وفحص كثير من المصادر المحلية والأجنبية.

الإحالات والهوامش:

- 1- انظر ابو العيد دودو، الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان، منشورات وزارة المجاهدين، دار الامة، الجزائر، 2009، ص 85 وما بعدها.
- 2- انظر مقدمة ابو العيد دودو، هاينرش فون مالتسان: ثلاث سنوات في غربي شمال افريقيا، ترجمة ابو العيد دودو، منشورات وزارة المجاهدين، دار الامة، الجزائر، 2009، م3، ص 8.3.
- 3- انظر بتفصيل عن احتلال الجلفة والأغواط ابراهيم مياسي: الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية 1837.1934، دار هومة الجزائر، 2005، ص 85 وما بعدها.
- 4- DUBARAIL(général), Mes souvenirs, T2, Plon, Paris, 1895, p20
- 5- احمد توفيق المدني: كتاب الجزائر، منشورات وزارة المجاهدين ضمن أعماله الكاملة، عالم المعرفة، الجزائر، 2010، مج 8، ص ص 278 279،
- 6- مالتسان : المصدر نفسه، ج 3، ص 181
- 7- مالتسان : المصدر نفسه، ج 3، ص. 185 . 186.
- 8- مالتسان : المصدر نفسه، ج 3، ص. 187.
- 9- مالتسان : المصدر نفسه، ج 3، ص. 187
- 10- مالتسان : المصدر نفسه، ج 3، ص. 189.
- 11- مالتسان : المصدر نفسه، ج 3، ص. 190
- 12- مالتسان : المصدر نفسه، ج 3، ص. 191 . 192